

المبحث الخامس

القدم النوعي من نونية ابن القيم

تمهيد :

خصت هذا المبحث لأبيات نونية ابن القيم مع شرح خليل هراس ليكون مراجعة لما سبق ، ولتوضيح مقالة ابن القيم في المسألة رداً على السبكي والكوثري في السيف الصقيل مع حاشيته . وهذه الأبيات تشمل كلام الله تعالى أيضاً لصلة ذلك بالموضوع ، وسوف أذكر الأبيات ثم شرح هراس عليه ، و ما يوجد من تعليق مني على ذلك فسيكون في الحاشية .

و قضى بأن الله كان معطلا **** و الفعل ممتنع
بلا ا مكان

ثم استحال وصار مقدوراً له **** من غير أمر
قام بالديان

بل حاله سبحانه في ذاته **** قبل الحدوث و
بعده سبان

الشرح

كان الجهم يقول بحدوث العالم بمعنى أنه صار موجوداً بعد أن كان معدوماً لا فرق في ذلك عنده بين أنواع الحوادث وأشخاصها . وتبعه على ذلك معظم فرق المتكلمين كالمعتزلة والأشعرية والكرامية .

ويلزم على هذا القول من الفساد أن الله عز وجل لم يزل معطلاً عن الفعل أو غير قادر عليه ، ثم صار فاعلاً وقادراً من غير تجدد سبب أصلاً أوجب له القدرة والفعل . أو أن الفعل منه كان ممتنعاً في الأزل ثم صار ممكناً مقدوراً من غير سبب اقتضى إمكانه – وهذا يستلزم الانقلاب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي ويلزم هؤلاء أيضاً أن الحادث إذا حدث بعد أن لم يكن فلا بد أن يكون ممكناً . والإمكان ليس له وقت محدد فما من وقت يقدر

حدوثه فيه إلا والإمكان ثابت قبله . ليس لإمكان الفعل وصحته مبدأ ينتهي إليه ، فيجب أنه لم يزل الفعل ممكناً جائزاً فيلزم جواز حوادث لا نهاية لها .

فقول المؤلف رحمه الله : وقضى بأن الفعل كان معطلاً إلخ ، إنما هو بيان لما يلزم مذهب جهم وشيعته في قولهم بحدوث العالم وأن له بداية في الزمان .

ويقابل قول هؤلاء قول الفلاسفة بقدم العالم ، وأنه صدر عن الله عز وجل صدور المعلول عن علته بلا قصد ولا اختيار ، ولا شك أن هذا القول أفسد من سابقه وساده من الظهور بحيث لا يحتاج إلى إطالة الكلام له .

بقى القول الثالث وهو ما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الله عز وجل لم يزل حياً قادراً فعلاً لما يريد متكلماً إذا شاء بما شاء ، وأن الفعل والكلام من صفات كماله التي لا يجوز تعطيله عنها في وقت

من الأوقات ، وأن الفعل والكلام لم يزل ممكناً
مقدوراً لا يجوز القول بامتناع ذلك منه في وقت من
الأوقات كذلك .

فصل في مذهب الكرامية

و القائلون بأنه بمشيئة **** في ذاته أيضاً
فهم نوعان
إحدهما جعلته مبدوءاً به **** نوعاً حذار
تسلسل الأعيان
فيسد ذاك عليهم في زعمهم **** إثبات خالق
هذه الأكوان
فلذاك قالوا أنه ذو أول **** ما للفناء عليه من
سلطان
وكلامه كفعاله وكلاهما **** ذو مبدأ بل ليس
ينتهيان

الشرح

وأما الفرقة الثانية من القائلين بأن الكلام متعلق بمشيئته تعالى وقدرته فانقسموا إلى طائفتين . الطائفة الأولى الكرامية أتباع محمد بن كرام ، وهؤلاء ذهبوا إلى أن الله تعالى يتكلم بمشيئته بالقرآن العربي وغيره ، إلا أنهم لا يقولون لم يزل متكلماً إذا شاء لأنه يمتنع عندهم أن يكون الله متكلماً في الأزل فيجعلون كلامه حادثاً في ذاته ، مسبقاً باليوم . بمعنى أن الله لم يكن عندهم متكلماً ، ثم صار متكلماً ، فنوع الكلام عندهم له ابتداء في ذاته (1) ، وإنما ألجأهم إلى ذلك الخوف من القول بحوادث لا أول لها ، فإن هذا يلزمه التسلسل في الموجودات والقول بقديم الأنواع

فينسد عليهم طريق إثبات الصانع في زعمهم إذ كان الطريق إلى ذلك هو حدوث الأشياء المستلزم لوجود محدث لها فلهذا اضطر الكرامية إلى أن يجعلوا لما يحدث في ذاته تعالى من الكلام او الفعل ابتداء ، لكنه مع ذلك إذ حدث فليس قابلاً عندهم للزوال والفناء ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة الفرقان (ومحمد بن كرام فكان بعد ابن كلاب في عصر مسلم بن الحجاج أثبت أنه يوصف بالصفات الاختيارية ، ويتكلم بمشيئته وقدرته . ولكن عنده يمتنع أنه كان في الأزل متكلماً بمشيئته وقدرته لامتناع حوادث لا أول لها ، فلم يقل بقول السلف لم يزل متكلماً إذا شاء ، وقال هو وأصحابه في المشهور أن الحوادث التي تقوم به لا يخلو عنها ، ولا تزول عنه)

(1) أي النوع عندهم حادث وليس قيماً كما يقول السلف
فالله لم يكن يتكلم ثم صار يتكلم فعطلوا الله عن كلامه
في أول الأمر وأثبتوه له في ثاني الحال .

قالوا ولم ينصف خصوم جعجعوا **** وأتوا
بتشنيع بلا برهان

قلنا كما قالوه في أفعاله **** بل بيننا بون
من الفرقان

بل نحن اسعد منهم بالحق إذ **** قلنا هما
بالله قائمتان

وهم فقالوا لم يقم بالله لا **** فعل ولا
قول فتعطيلان

لفعاله و مقاله شر و أبطل **** من حلول
حوادث بيان

تعطيله عن فعله و كلامه **** شر من
التشنيع بالهذيان
هذى مقالات ابن كرام و ما **** ردوا عليه
قط بالبرهان
انى و ما قد قال اقرب منهم **** للعقل
والآثار و القرآن
لكنهم جاءوا له بججاج **** وفراق و قعاقع
بشمان

الشرح

قالت الكرامية أن خصومنا من الكلاية والأشعرية
قد شنعوا علينا في قولنا بحدوث الكلام في ذاته
تعالى بمشيئته واختياره مع أنه لا حجة لهم في هذا
التشنيع على أنهم قد قالوا بمثل قولنا في أفعاله
تعالى فجعلوها حادثة ، ولزمهم في ذلك مثل ما
لزمنا من أن الله كان معطلاً عن الفعل في الأزل ،
ثم صار فاعلاً بلا تجدد سبب أوجد القدرة والإمكان ،

بل نحن أقرب منهم إلى الحق لأننا جعلنا الكلام والفعل صفتين قائمتين بذاته ، وأما هم فعطلوه عن قوله وفعله ، فإن القول المسموع عندهم مخلوق كما أن الفعل عين المفعول المخلوق ، ولا شك أن تعطيل الباري عن قوله وفعله شر ، وأدخل في الباطل من القول بحلول الحوادث في ذاته ، والحق أن مقالة ابن كرام وإن كانت منحرفة عن جادة الصواب حيث حكم بخلوه تعالى في الأزل من الكلام والفعل وهما من صفات كماله إلا أن خطأه أهون من خطأ الأشعرية ، ولهذا لم يستطيعوا أن يردوا عليه ببرهان جلي ، فإن ما قاله أقرب إلى العقل والنقل مما قالوه .

أما من جهة العقل فلأنه لا يعقل متكلماً ولا فاعلاً إلا من قام به الفعل والكلام وأما من جهة النقل فالنصوص كلها دلت على أن الله متكلم بمشيئته وقدرته ، وأن كلامه ليس إلا حروفاً وأصواتاً مسموعة .

قوله جعجعوا : أحدثوا ضجة شديدة ، وقوله : بتشنيع
من شنع عليه إذا نسه إلى الشناعة وهي القبح .
وقوله لفعاله ومقاله متعلق بتعطيلان في البيت قبله
وتعطيلان مبتدأ خبره شر وأني بمعنى كيف
والاستفهام استبعاد والججاجع و الفراقع والقعاقع
أسماء أصوات .

فصل في ذكر مذهب أهل الحديث

والآخرون أولوا الحديث كأحمد ***** و محمد و
أئمة الإيمان
قالوا بأن الله حقاً لم يزل ***** متكلماً
بمشيئة و بيان
إن الكلام هو الكمال فكيف ***** يخلو عنه في
أزل بلا إمكان

و يصير فيما لم يزل متكلماً **** ماذا اقتضاه
له من الإمكان
و تعاقب الكلمات أمر ثابت **** للذات مثل
تعاقب الأزمان
والله رب العرش قال حقيقة **** حم مع
طه بغير قران
بل أحرف مترتبات مثل ما **** قد رتبت في
مسمع الإنسان
وقتان في وقت محال هكذا **** حرفان
أيضاً يوجدان في آن
من واحد متكلم بل يوجدان **** بالرسم أو
يتكلم الرجلان
هذا هو المعقول أما الاقتران **** فليس
معقولاً لذي الأذهان

الشرح

و أما الآخرون من القائلين بأن الله متكلم بكلام قائم بذاته متعلق بمشيئته وإرادته فهم أصحاب الحديث أهل السنة والجماعة كأحمد بن حنبل الشيباني ومحمد بن إسماعيل البخاري وغيرهما من أئمة الإيمان رضي الله عنهم ذهبوا إلى أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، لأن الكلام صفة كمال إذ أن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً لذاته وإذا فلا يعقل خلوه تعالى عنه في الأزل ، لأن الخلو عن الكمال نقص يستحيل على الله . ولأن الكلام إذا كان ممتنعاً عليه في الأزل ، ثم صار متكلماً فيما لا يزال ، فما الذي اقتضى انقلابه من الامتناع إلى الإمكان ، مع أنه لم يتجدد في ذاته شيء يوجب ذلك الانقلاب فتبين أن الرب سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء بمعنى أن جنس كلامه قديم وتعاقب الكلمات وخروجها إلى الوجود شيئاً بعد شيء هو أمر ثابت

لها لذواتها مثل تعاقب الأزمنة فكما أن أجزاء الزمان لا توجد مجتمعة ، بل توجد على سبيل التعاقب أنا بعد آن ، فكذلك الحروف التي هي أجزاء الكلمات لا يمكن النطق بها مجتمعة بحيث يكون النطق بالحرف الثاني مع الأول في آن واحد ، بل لابد من وجودها على سبيل التعاقب والتسلسل حرفاً بعد حرف ، فإذا قال الله عز وجل : حم أو طه فلا يعقل اجتماع الحرفين من كل من هاتين الآيتين بحيث ينطق بالميم مع الحاء ، أو بالهاء مع الطاء بل تأتي الحروف متربات في النطق كما هي مترتبة في السماع . وإذا كان وجود وقتين من الزمان في وقت واحد غير معقول لأن الزمان كم متصل غير قار الذات لا يجتمع أجزاءه في الوجود ، فكذلك وجود حرفين من متكلم واحد في آن واحد مستحيل ، وإنما يعقل ذلك في الرسم أي الكتابة أو إذا كان المتكلم أكثر من واحد ، وأما الاقتران الذي تزعم الاقتراية

فشيء غير معقول لذوي الأذهان بل إن استحالته
ضرورية لا تحتاج إلى بيان .

فتقول هذا القدر قد أعيا على **** أهل الكلام و
قاده أصلان

إحداهما هل فعله مفعوله **** أو غيره فهما
لهم قولان

و القائلون بأنه هو عينه **** فروا من
الأوصاف بالحدثان

لكن حقيقة قولهم و صريحه **** تعطيل خالق
هذه الأكوان

عن فعله إذ فعله مفعوله **** لكنه ما قام
بالرحمن

فعل الحقيقة ما له فعل إذ **** المفعول
منفصل عن الديان

الشرح

هذا جواب المؤلف على إيراد المعتزلة الذي أرادوا به تصحيح مذهبهم في الكلام بقياسه على الفعل ، وقولهم أن وصفه بالمتكلم لا يقتضي قيام الكلام به ، كما لا يقتضي وصفه بفاعل قيام الفعل به ، وقد استطرد المؤلف في الجواب بذكر مذاهب المتكلمين في فعله تعالى ، وهل هو عين مفعوله أو غيره ، فالقائلون بأنه هو عينه كالجهمية والمعتزلة إنما دعاهم إلى ذلك فرارهم من القول بقيام الحوادث بذاته ، فإن الفعل إذا جعل وصفاً له لم يكن إلا حادثاً ، والله ليس محلاً للحوادث عندهم ، لأن ذلك يستلزم حدوثه ، وهذا الأمر مما وافقت فيه الأشعرية المعتزلة حيث منعوا هم أيضاً قيام الحوادث بذاته ، وقالوا ان مالا يخلو من الحوادث فهو حادث

وقد قادت هذه القضية الكاذبة كلا من الطائفتين إلى أحكام فاسدة ، فقد التزم المعتزلة لأجلها أن يكون

الفعل عين المفعول ، وأن يكون كلامه تعالى مخلوقاً له منفصلاً عنه ، والتزم الأشاعرة لأجلها بنفي الحرف والصوت ، ونفي صفات الأفعال من الاستواء والمجىء ، والغضب والرضى ، والمحبة والسخط ، والكراهية والنزول والإتيان الخ .

والتزموا أن يكون الله قد تكلم في الأزل بكلام سمعه موسى ، وأنه ناداه وناجاه في الأزل إلى غير ذلك مما هذى به الفريقان مما يصادم المعقول والمنقول مصادمة صريحة .

وحقيقة قول هؤلاء المعتزلة والجهمية أن الفعل عين المفعول هو نفي الفعل وتعطيل الخالق عنه ، فإنه إذا كان الفعل هو المفعول ، ومعلوم أن المفعول مخلوق له منفصل عنه لم يكن له في الحقيقة فعل هو وصف له قائم به ، فتفسير الفعل بالمفعول مستلزم لنفيه ، وأنه ليس هناك إلا المفعول .

و القائلون بأنه غير له **** متنازعون و هم
فطائفان

إحداهما قالت قديم قائم **** بالذات وهو
كقدرة المنان

سموه تكويناً قديماً قاله **** اتباع شيخ
العالم النعماني

وخصومهم لم ينصفوا في رده **** بل كابروهم
ما أتوا ببيان

والآخرون رأوه أمراً حادثاً **** بالذات قام
وإنهم نوعان

إحداهما جعلته مفتتحاً به **** حذر التسلسل
ليس ذا إمكان

هذا الذي قالته كرامية **** ففعاله و كلامه
سيان

الشرح

وأما القائلون بأن الفعل غير المفعول فقد انقسموا
أولاً إلى طائفتين :

إحداهما : قالت أنه قديم بالذات لازم لها كالقدرة ⁽¹⁾

، ولم يجعلوه متعلقاً بمشيئته تعالى وقدرته ، وهم

الماتريدية أتباع الشيخ أبي منصور الماتريدي من

علماء الحنفية وهذه المسألة مما خالف فيه

الماتريدية الأشاعرة رغم ما بين الطائفتين من

اتفاق في كثير من مسائل الكلام ، فإن المشهور عن

الأشاعرة أنهم لا يثبتون إلا سبع صفات ، يسمونها

صفات المعاني وهي : الحياة والقدرة والإرادة

والعلم والسمع والبصر والكلام ، ويجعلونها كلها

قديمة قائمة بالذات وأما صفات الأفعال عندهم من

الخلق والرزق والإحياء والإماتة إلخ ، فيجعلونها

تعلقات تنجزية حادثة للقدرة القديمة ، ومن العجب أنهم يقولون أن تعلقات الإرادة كلها تنجزية قديمة ، فكيف إذا تخلف عنها المراد في الأزل وكذلك قالوا في تعلقات العلم والكلام . وأما الماتريدية فقد أثبتوا التكوين صفة أخرى وراء الصفات السبع المتقدمة وجعلوها قديمة كما سبق ، وقد عارضهم خصومهم ، من الأشاعرة وردوا قولهم في إثبات هذه الصفة مكابرة بلا دليل .

وأما الطائفة الأخرى فقد ذهبت إلى أن الفعل حادث قائم بالذات ، ثم انقسمت إلى فرقتين : الكرامية أتباع محمد بن كرام ، وهؤلاء ذهبوا إلى أن فعله حادث قائم بذاته ومتعلق بمشيئته وقدرته ، ولكنهم جعلوا له ابتداء في ذاته ،

(1) وانما قالوا ذلك مداهنة للمعتزلة والجهمية والذين يقولون ان الفعل إذا كان حادثاً وقام بالله لزم ان يكون الله محلاً للحوادث فيكون حادثاً ن ولهذا قالوا ان الفعل قديم ويلزم على هذا ان يكون المفعول قديماً لأن الفعل لابد ان ينتج مفعولاً ولهذا قالوا لا نسميه فعلاً بل تكويناً ، و التكوين ان أرادوا به التقدير أي قدر كذا فعلى هذا لم يقرروا بالفعل بل جعلوا الفعل هو التقدير والقضاء ، وإن جعلوا التكوين هو فعل الشيء وعمله فعلى هذا يكون المفعول قديماً ، وعلى هذا جرى أبو جعفر الطحاوي .

بمعنى أنه لم يكن فاعلاً ثم فعل⁽¹⁾. وهكذا قالوا في جميع الصفات المتعلقة بالمشيئة من الكلام والرضى والمحبة والنزول والاستواء ، والذي دعاهم إلى ذلك الخوف من القول بالتسلسل في أفعاله ، فيلزم قدم أنواع المفعولات ، فيسد ذلك عليهم في زعمهم طريق إثبات الصانع ، إذ كان إثباته من طريق حدوث المخلوقات ، وذهبوا إلى أن الفعل والكلام سيان ، كلاهما حادث له ابتداء في الذات ، فالله

عندهم لم يكن متكلماً ولا فاعلاً ، ثم حدث له الفعل
والكلام ، فعطلوه سبحانه عن فعله وكلامه وجعلوا
كلّ منهما ممتنعاً في الأزل .

والآخرون أولوا الحديث كأحمد ***** ذاك ابن
حنبل الرضي الشيباني
قد قال إن الله حقاً لم يزل ***** متكلماً إن
شاء ذو إحسان
جعل الكلام صفات فعل قائم ***** بالذات لم
يفقد من الرحمن
وكذاك نص على دوام الفعل ***** بالإحسان
أيضاً في مكان ثان
وكذا ابن عباس فراجع قوله ***** لما أجاب
مسائل القرآن

وكذاك جعفر الإمام الصادق **** المقبول عند
الخلق ذو العرفان

قد ق ال لم يزل المهيمن محسناً **** براً
جواداً عند كل أوان

الشرح

وأما الفرقة الثانية من القائلين بأن فعله تعالى
حادث وقائم بذاته ، فهم أصحاب الحديث كالإمام
أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، هؤلاء ذهبوا إلى ما
دلت عليه النصوص الصريحة وحكم به العقل السليم
من أن الله لم يزل متصفاً بصفات

(1) أي كان ممكناً بعد أن كان مستحيلاً .

كماله سواء ما كان فيها لازماً لذاته أو ما كان متعلقاً
بمشيئته وقدرته ، ليس لما يحدث في ذاته عندهم

ابتداءً ، بل يقولون لم يزل الله متكلماً إذا شاء بما شاء وكيف شاء خلوه عنها في وقت من الأوقات لأن الخلو عن الكمال الممكن نقص مستحيل على الله ، ولا يلزم من دوام فعله وكلامه قدم شيء من المفعولات ، فإن الله لم يزل يفعل الأشياء ويحدثها شيئاً بعد شيء ، وكذلك لم يزل متكلماً بما شاء ، فكل من الكلام والفعل قديم النوع ولكن آحاده لم تزل تحدث في ذاته سبحانه بلا بداية ولا انقطاع ، وهذا مستلزم للتسلسل في الآثار ، وهو ليس بممتنع ، بل دل الشرع والعقل على ثبوته ، وإنما الممتنع هو التسلسل في العلل والمؤثرين .

وقوله في البيت الثاني : ذو إحسان خير ثان لأن ، أي لم يزل محسناً كما لم يزل متكلماً ، وقوله في البيت الرابع وكذلك نص الخ ، يعني به أحمد رحمه الله أنه نص في مكان آخر من كتابه الذي رد به على الجهمية على دوام فعله سبحانه بدوام إحسانه كما نص على ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيما

أجاب به على مسائل القران ، وكذاك جعفر الصادق
من أئمة أهل البيت المشهود لهم بالورع والتقوى
والمعرفة الحقة . وقال لم يزل المهيمن محسناً برا
جواداً في كل وقت وحال ، وهذا إثبات لدوام فعله
سبحانه واستمراره في أوقات الزمان كلها بلا بداية
ولا انقطاع .

وكذا الإمام الدارمى فإنه **** قد قال ما فيه
هدى الحيران
قال الحياة مع الفعال كلاهما **** متلازمان
فليس يفترقان
صدق الإمام فكل حي فهو **** فعال وذا في
غاية التبيان
إلا إذا ما كان ثم موانع **** من آفة أو قاسر
الحيوان

والرب ليس لفعله من مانع **** ما شاء كان
بقدره الديان
ومشيئة الرحمن لازمة له **** وكذلك قدرة
ربنا الرحمن

الشرح

وممن نص على دوام فاعلية الرب ، وأنه لم يعطل
عنها في وقت من الأوقات – الإمام الكبير عثمان بن
سعيد الدارمي – المشهور في رده على الجهمية
والقدرية ، وقد قال في هذا كلاماً جيداً وأدلى بحجة
قوية ، مبناها على أن الفعل لازم للحياة ، فكل حي
لابد أن يكون فعالاً ، وما ليس بفعال فهو ليس بحي ،
فالحياة والفعل متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر
في الوجود ، اللهم إلا إذا وجد مانع يمنع لحي من
الفعل من آفة تصيبه أو قاسر يقسره ، وذلك لا

يتصور في حقه سبحانه فإن حياته أكمل حياة فيجب أن تستلزم أكمل الأفعال ويستحيل أن تطرأ عليه آفة يعجز معها عن الفعل بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فالمشيئة لازمة له لا مكره له ولا غالب ، والقدرة كذلك من صفاته اللازمة فلا يعتريه وهن ولا عجز ولا قصور ، ومع نفوذ المشيئة وتمام القدرة وانتفاء كل الموانع التي تمنع من تعلقها بالممكن لا يتصور التعطيل عن الفعل ، فثبت أنه سبحانه لم يزل فعالاً لأنه لم يزل حياً قادراً مريداً .

هذا وقد فطر الإله عباده ***** إن المهيمن
دائم (1) الإحسان

أو لست تسمع قول كل موحد **** يا دائم
المعروف و السلطان

(1) والدوام يقتضي التسلسل في الأزل والأبد .
وقديم الإحسان الكثير ودائم **** الجود
العظيم وصاحب الغفران
من غير إنكار عليهم فطرة **** فطروا عليها
ولا توأصي ثان
أو ليس فعل الرب تابع وصفه **** و كماله (1)
أفذاك ذو حدثان
وكماله سبب الفعال و خلقه **** أفعالهم سبب
الكمال الثاني
أو ما فعال الرب عين كماله **** أفذاك ممتنع
على المنان

أزلاً إلى أن صار فيما لم يزل **** متمكناً و
الفعل ذو إمكان

الشرح

بعد أن قرر المؤلف مذهب السلف القويم في دوام
فاعلية الرب وكلامه أورد من النقول عن بعض أئمة
أهل السنة كأحمد وغيره ما يشهد لصحته أراد أن
يستدل عليه كذلك عن طريق الفطرة والعقل وأما
الفطرة فأننا نسمع الناس في دعائهم واستغاثتهم ،
وطلبهم الحاجات من الله عز وجل يلهجون بهذه
العبارات من قولهم : يا قديم الإحسان ، يا قديم
المعروف والسلطان ، يا دائم الجود والامتنان إلى
غير ذلك مما يفهم أنهم فطروا على اعتقد ذلك
فطرة دون أن يوصى بعضهم بعضاً بذلك ، أو يعلمه
إياه ودون أن ينكر بعضهم على بعض .

وأما دليل العقل فهو أن فعل الرب سبحانه تابع
لوصفه وكماله ، فإذا كان لم يزل موصوفاً بصفات

الكمال ونعوت لجلال بحيث لا يتصور خلوه عنها
لحظه من اللحظات في جانب الأزل أو الأبد فهو إذاً
لم يزل فعلاً لأن الفعل من جملة الصفات التي لم
يزل بها موصوفاً ، والفعل من لوازم كماله سبحانه
فكماله في

(1) ففعل الرب تابع لكماله ، وكمال الرب ليس حادثاً بل
وصفه الدائم ، ولما كان كاملاً كان الكمال سبب الفعل

ذاته وصفاته هو سبب كونه فاعلاً فهو سبحانه كامل
ففعل ، أما الكمال في المخلوقات والمكونات في
أعيانها وأوصافها فهو تابع لكمال الكون المكون فإن
أثر الكمال لا يكون إلا كاملاً .

وإذا كان الفعل عين كماله سبحانه لأن الكمال
مستتبع له ولا يحصل إلا به . فكيف إذاً يجوز القول

بامتناع الفعل منه في الأزل ، ثم يصير هذا الفعل
ممكناً فيما لا يزال من غير تجدد سبب أوجب ذلك
الانقلاب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي لا
تجدد قدرة ولا إرادة ولا غيرهما .

تالله قد ضلت عقول القوم إذ **** قالوا بهذا
القول ذي البطلان
ماذا الذي أضحي له متجدداً **** حتى تمكن
فانطقوا ببيان
والرب ليس معطلاً عن فعله **** بل كل
يوم ربنا في شان
والأمر والتكوين وصف كماله **** ما فقد ذا
ووجوده سيات
وتخلف التأثير بعد تمام موجهه **** محال ليس
في الإمكان

والله ربي لم يزل ذا قدرة **** و مشيئة
ويليهما وصفان
العلم مع وصف الحياة وهذه **** أوصاف ذات
الخالق المنان
وبها تمام العقل ليس بدونها **** فعل يتم
بواضح البرهان
فلأى شيء قد تأخر فعله **** مع موجب قد
تم بالأركان
ما كان ممتنعاً عليه الفعل بل **** ما زال
فعل الله ذا إمكان

الشرح

يعني أن هؤلاء الذين قالوا بأن الله كان معطلاً عن
الفعل في الأزل وإن الفعل كان ممتنعاً منه فيما لم
يزل ، ثم صار ممكناً فيما لا يزال قد قالوا بما يعلم
كل عاقل بطلانه وبرهنوا على سخافة عقولهم إذ لو

كان الفعل ممتنعاً عنه في الأزل فما الذي صيره
ممكناً مع أنه لم يتجدد في ذاته شيء يقتضي هذا
الانقلاب من الامتناع إلى الإمكان ، وهذا الإلزام لا
مخلص لهم منه فإن أجابوا عنه بأن نفس الأزل هو
المانع من التأثير في الممكن لأن من شرائط التأثير
فيه أن يكون مسبقاً بالعدم قلنا سبق العدم أمر
عدمي يصلح أن يكون شرطاً للتأثير ، ولكن الذي
يصلح شرطاً هو الإمكان والإمكان ثابت في الأزل
فثبت أن الرب سبحانه لم يكن معطلاً عن فعله في
وقت من الأوقات بل كل يوم هو في شأن يدبر ما
يشاء ويحدث من الأمور ما تقتضيه حكمته – ويقال
لهؤلاء أيضاً أليس الأمر والتكوين من صفات الكمال
بدليل أن المتصف بهما أكمل من الفاقد لهما ،
وحينئذ فالله لم يزل آمراً مكوناً والأمر والتكوين هما

الموجب التام للتأثير وهو مستلزم لوجود الأثر لأن
تخلف الأثر بعد تمام علته الموجبة له محال غير
ممکن ، ويقال لهم كذلك أن الله لم يزل قادراً
مريداً عالماً حياً وهذه الأربعة صفات ذاتية له ،
وليس يحتاج الفاعل في كونه فاعلاً إلى غير هذه
الأربع فهي التي بها تمام الفعل لأنها أركانه التي لا
يتحقق بدونها ، وإذا كان ذلك فلماذا تأخر فعله
سبحانه عن وجود الموجب التام لجميع أركانه ، فإن
قلتم : تأخر الفعل لأنه كان ممتنعاً في الأزل ، قلنا :
كذبتم بل لم يزل لأن الممتنع لا ينقلب ممكناً

والله عاب المشركين بأنهم ***** عبدوا الحجارة
في رضا الشيطان

ونعى عليهم كونها ليست **** بخالقة وليست

ذات نطق بيان

فأبان أن الفعل والتكليم من **** أوثانهم لا

شك مفقودان

وإذا هما فقدما مسلوبها **** بإله حق وهو

ذو بطلان

والله فهو إله حق دائماً **** أفعنه ذا الوصفان

مسلوبان

أزلاً وليس لفقدتها من غاية **** هذا المحال

وأعظم البطلان

الشرح

ويقال لهؤلاء أيضاً إذا كان الله معطلاً عن الفعل

والكلام في الأزل لم يكن إلهاً حقاً ولا واجب العبادة

فإن الإلهية الحقّة واستحقاق العبادة لا يكون إلا مع

القدرة على الخلق والتكليم ، ولهذا عاب الله

المشركين الذين يعبدون الأصنام إرضاء للشيطان
بأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة لأنه لا يقدر على
خلق شيء ولا يستطيع تكليم عابديه . قال تعالى ﴿
أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ وقال في
سورة النحل ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ وقال في
سورة الفرقان : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون
شيئاً وهم يخلقون ﴾ وقال في سورة الأحقاف ﴿ قل
أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من
الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ وقال تعالى في
شأن الذين عبدوا العجل من قوم موسى عليه
السلام ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾
وقال الحكاية عما قاله إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿
بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾

فدللت هذه الآيات الكريمة على أن الفعل والتكليم مفقودان من هذه الأوثان وفقدتهما يدل على أنها ليست بآلهة . ومعلوم أن الله إله حق دائماً . ولا يكون كذلك إلا إذا كان موصوفاً بالفعل والتكليم دائماً لأن فاقدهما لا يكون إلهاً حقاً كما تقدم ، فكيف يجوز أن يقال أن هذين الوصفين اللذين عليهما مدار الألهية مسلوبان عنه أزلاً ، ومعلوم أن الأزل لا غاية له ولا نهاية ، هذا من أمحل المحال وأعظم البطلان .

إن كان رب العرش حقاً لم يزل **** أبداً إله الحق ذا سلطان

فكذلك أيضاً لم يزل متكلماً **** بل فاعلاً ما شاء ذا إحسان

والله ما في العقل ما يقضي لذا **** بالرد و الإبطال و النكران

بل ليس في المعقول غير ثبوته **** للخالق
الأزلي ذي الإحسان
هذا وما دون المهيمن حادث **** ليس القديم
سواه في الأكوان
والله سابق كل شيء غيره **** ما ربنا
والخلق مقترنان
والله كان و ليس شيء غيره **** سبحانه جل
العظيم الشان

الشرح

فإذا كان الله لم يزل ولا يزال له الإلهية الحقّة
والسلطان الأعظم ، فيجب كذلك أن يكون لم يزل
متكلماً بما شاء وفاعلاً لما شاء ، ولم يزل محسناً
براً رحيماً ، وليس في العقل ما يحيل هذا أو يأباه ،
كيف والعقل إنما يقتضي ثبوته للخالق جل وعلا ،

لأنه يقر له بالأزلية ذاتا وصفات . والأزلية تنافي حدوث الصفات وابتدائها في ذاته ، ولا يلزم من القول بقدم الفعل القول بقدم شيء من المفعولات ، فإن الله هو وحده القديم ، وكل ما سواه حادث ، وليس وجود الأشياء مقارناً بوجوده ، بل وجوده سابق عليها جميعاً كما جاء في الحديث " كان الله ولم يكن شيء معه " أي مساوق له في الوجود سبحانه ، بل متأخر عنه . ولكننا مع ذلك لا نقول بوجود فاصل لا نهاية له في الزمان بين وجود الله ووجود العالم كما يقوله من ذهب إلى أن العالم وجد من عدم ، فإن هذا يستلزم كما قدمنا أن يكون الباري معطلاً عن الفعل أو غير قادر عليه مدة لا تقاس بها مدة فاعليته ، بل نقول أنه سبحانه يكون الشيء فيكون عقب تكوينه ، لا مع تكوينه ولا

متراحياً عنه فإن المؤثر التام يجب أن يكون أثره
عقيب تأثيره بلا مهلة ، وإلى هذا الإشارة بقوله
تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن
فيكون ﴾

لسنا نقول كما يقول الملحد ***** الزنديق صاحب
منطق اليونان

بدوام هذا العالم المشهود⁽¹⁾ ***** والأرواح⁽²⁾ في
أزل وليس بفان

هذي مقالات الملاحدة الأولى ***** كفروا بخالق
هذه الأكوان

الشرح

يعني أننا وإن قلنا بقدم الفعل الذي هو صفة الله ، لا
نقول بأن العالم المفعول قديم مع الله ، وأنه مقارن

له في الزمان ، كما يقول ذلك أرسطو صاحب المنطق ، فالمشهور عن أرسطو أنه كان يرى أن العالم مساوق لله في الوجود أزلاً وأبداً ، والله عنده ليس خالقاً للعالم ، وإنما هو محرك فقط ، ولهذا كان يسميه المحرك الأول أو العلة الأولى أو الصورة المحضة . ولا يعني أرسطو بذلك أن الله فعل في العالم الحركة ، فإن الله ليس بعلة فاعلية عنده ، وإنما هو علة غائية .

ويقول أرسطو في بيان ذلك : أن الله لما كان صورة محضة كان في غاية الكمال وكانت المادة في الجهة الأخرى أقرب إلى العدم منها إلى الوجود إذ كانت إمكاناً وكانت وجوداً بالقوة لا بالفعل ، فتركت بدافع الشوق إلى محاكاة تلك الصورة المحضة والقرب منها قدر الطاقة ، وكانت هذه الحركة الشوقية هي التي أبرزت هذه المادة إلى الوجود بالفعل وسارت بها في طريق التقدم والارتقاء ولا

(1) وهو السماوات والأرض والأفلاك .

(2) وهو عالم خفي .

ريب أن هذا الكلام هو إلى الشعر والخيال أقرب منه إلى الفلسفة ، فكيف خان صاحب المنطق منطقته ولم يسعده في هذه المشكلة حتى تورط فيما تورط فيه من كلام هو إلى الهذيان أقرب منه إلى الجد . فليبين لنا أرسطو ما الذي بث الشوق والحنين في مادته المزعومة حتى تحركت تحاول التشبه بتلك الصورة المحضة ، وكيف كانت المادة أو الهيولي الأولى قبل حلول الصورة فيها إمكاناً أو قوة ، والإمكان معنى من المعاني التي توصف بها المادة وليس هو المادة ، ولسنا هنا بصدد الرد على هذه الحماقة من فيلسوف طار صيته وذاع ، حتى كاد أن

يعبده أتباعه من متفلسفة الإسلام المارقين من أمثال الفارابي وابن سينا ويزعمون لآرائه العصمة والقداسة ، ويقدمونها على الوحي المنزل ولا ريب أن هذا الذي قال به أرسطو في قدم العالم هو رأى الملاحدة الدهرية الذين ينكرون وجود الخالق جل وعلا ويقولون   ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر   .

واتى ابن سينا بعد ذاك مصانعاً ***** للمسلمين فقال بالإمكان لكنه الأزلى ليس بمحدث ***** ما كان معدوماً ولا هو فان وأتى بصلح بين طائفتين بينهما ***** الحروب وما هما سلمان

أنى يكون المسلمون وشيعة **** اليونان
صلحاً قط في الإيمان
والسيف بين الأنبياء وبينهم **** والحرب بينهم
فحرب عوان

الشرح

جاء ابن سينا بعد أرسطو ، وكان كما قلنا تلميذاً وفيماً
لفلسفة أستاذه ، ولكنه من جهة أخرى كان يريد
مصانعة المسلمين ومداهنتهم حتى لا يفتنوا
لمروقه وإلحاده ، فتكيس بمحاولة التوفيق بين
الفلسفة التي تقول بقدوم العالم ومقارنته الله في
الزمان ، وبين الدين الذي يجعله مخلوقاً حادثاً ، بعد
أن لم يكن ، فزعم أن الله علة تامة لوجود العالم ،
والعلة التامة يجب أن يقارنها معلولها ولا يتخلف عنها

،
وعلى هذا فيمكن القول بأن العالم أزلّى مقارن لله
في الزمان ، كما تقول الفلسفة ، ولكنه من جهة

أخرى متأخر وممكن حادث بالذات أما كونه متأخراً
فلأن المعلول قد استفاد الوجود من علته ، ولا نعى
بالحدوث الذاتي إلا استفادة الوجود من الغير ومن
العجيب أن ابن سينا مع قوله بقدم العالم يسمى
الله خالقاً وفاعلاً ويسمى العالم مخلوقاً ومفعولاً ،
فمتى خلق الله العالم على رأيه أو فعله إذا كان
وجوده مقارناً لوجوده وكيف يمكن أن يكون الله
خالقاً للعالم مع القول بأنه علة والخلق إنما يعتمد
على القصد والاختيار ، وأما العلة فيصدر عنها
معلولها بالايجاب المنافي للاختيار ، والعالم عنده كما
هو أزلي مساوق لعلته في جانب الأزل ، هو كذلك
أبدى غير قابل للفناء لأن المعلول لعله تامة يجب أن
يبقى ببقاء علته .

وهكذا يظن ابن سينا أنه أفجح بهذا التمويه والمغالطة في لبس الأمر على المسلمين ، ولكن الأذكفاء من علماء هذه الأمة من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية استطاعوا كشف تلبساته وفضح سرائره ونياته .

ومن العجب أيضاً أن يزعم هذا الرجل أنه يحاول الصلح والتوفيق بين طائفتين لا يعقل أن تهدأ بينهما الحرب أو أن يتم سلام ، فهذه طائفة تؤمن بالوحي والقرآن وتعتصم بعري الإسلام والإيمان وهذه طائفة كافرة تدين بما ضرطت به عقول فلاسفة اليونان مما كله أو أغلبه كفر وإلحاد وهذيان . فلا يمكن أن يوضع السيف بينهم وبين أتباع الأنبياء أبد الدهر ، وستبقى بينهم الحرب العوان حتى لا تكون فتنة وحتى يظهر دين الله على الدين كله ولو كره الكافرون .

وكذا أتى الطوسي بالحرب الصريح **** بصارم

منه وسل لسان

وأتى إلى الإسلام يهدم أصله **** من أسه و

قواعد البنيان

عمر المدارس للفلاسفة الألى **** كفروا

بدين الله والقرآن

وأتى إلى أوقاف اهل الدين **** ينقلها إليهم

فعل ذى أضغان

وأراد تحويل الإشارات التي **** هي لابن

سينا موضع الفرقان

وأراد تحويل الشريعة بالنواميس **** التي

كانت لذى اليونان

لكنه علم اللعين بأن هذا **** ليس في

المقدور و الإمكان

إلا إذا قتل الخليفة و القضاة **** وسائر
الفقهاء في البلدان
فسعى لذاك وساعد المقدور بالأمر **** الذي
هو حكمة الرحمن

الشرح

بعد أن فرغ المؤلف من الكلام على ابن سينا
القرمطي ، وما كان يكيد به للإسلام وأهله في
الخفاء بسبب اتباعه للفلسفة مع إيهامه انه حريص
على اتباع الشريعة ، وأنه يحاول جاهداً التوفيق بينها
وبين الفلسفة ، أخذ في الحديث على ذيل من ذيوله
الذين تعلقوا بفلسفته وهو الخواجة نصير الدين
الطوسي ، فذكر أن هذا الرجل لم يكن يصانع
المسلمين كسلفه ، ولكنه أعلنها على الإسلام وأهله
حرباً صريحة سافرة بسيفه ولسانه ، فكان يسعى
جهده لكي يهدم الإسلام من أساسه ، فأنشأ
المدارس ، لا لدراسة الكتاب والسنة وعلوم

الشريعة ، ولكن لدراسة الكفر والإلحاد باسم الفلسفة ، وحول الأحباس التي كانت لأهل الدين إلى طلبه هذه المدارس حسداً منه وبغياً .

وقد أراد هذا الخبيث أن يجعل الإشارات الذي ألفه سيده ابن سينا كتاباً مقدساً بدلاً من القرآن ، يعني بحفظه ودراسته وتعليمه ، كما أراد أن ينسخ الشريعة ويستعيض عنها بالنظم والقوانين التي كانت عند اليونان والرومان ، ولكنه علم أن ذلك لا يتم له ولا يقر عليه إلا إذا أزال دولة الإسلام بقتل رجالاتها من الخليفة والقضاة والفقهاء في سائر البلدان ، فسعى لذلك سعيه باستعداد التتار أتباع جانكيز خان على المسلمين ، وكان يعمل كالمشير لهم ، وساعد على تحقيق غرضه موافقة الأقدار له لحكمة أرادها الله سبحانه وهو أحكم الحاكمين

فأشار أن يضع التتار سيوفهم **** في عسكر
الإيمان والقرآن
لكنهم يبقون أهل مصانع الدنيا **** لأجل
مصالح الأبدان
فغدا على سيف التتار الألف في **** مثل لها
مضروبة بوزان
وكذا ثمان مئيتها في ألفها **** مضروبة
بالعد والحسبان
حتى بكى الإسلام أعداه اليهود **** كذا
المجوس وعابد الصليبان
فشفى اللعين النفس من حزب **** الرسول
وعسكر الإيمان والقرآن
وبوده لو كان في أحد وقد **** شهد الواقعة
مع أبي سفيان

لأقر إعينهم وأوفى نذره **** أو أن يرى
متمزق اللحمان

الشرح

أراد هذا الخبيث شفاء غيظه المتقد على الإسلام
وأهله بمحاولة الإتيان على أصوله وقواعده والقضاء
على حملته ، فأشار على أعوانه من التتار ، وهم أهل
جهل وغلظة أن يضعوا سيوفهم في معسكر الإيمان
والقرآن من رجال الفقه والدين مع الإبقاء على ذوى
الحرف وأرباب الصنائع من أجل عمارة البلدان
ومصالح الأبدان .

وقد أخذ هؤلاء السفكة من التتار بمشورة هذا
الخبيث الملحد ، فأعملوا سيوفهم في أهل الإسلام
في كل بلد دخلوه حتى قدر عدد القتلى بسيوف
هؤلاء المجرمين بما يقرب من مليون وثمانمائة ألف
شخص ونكب الإسلام بهم نكبة جعلت أعداءه من

اليهود والنصارى والمجوس سيكونه ويرثون لحاله ،
وبذلك تمكن هذا اللعين من شفاء نفسه من حزب
الرسول ﷺ الذين هم جند الإيمان وعسكر القرآن .
وكان يود له أنه شهد وقعة أحد مع أبي سفيان
وحزنه ، وكان جندياً في جيش الباطل إذاً لصال
وجال وأقر أعين إخوانه من أهل الشرك والضلال
وأوفى نذره في الكيد للإسلام وجها أهله ، او يرى
مقتولاً متمزق اللحمان .

وشواهد الأحداث ظاهرة على **** ذا العالم
المخلوق بالبرهان
وأدلة التوحيد تشهد كلها **** بحدوث كل ما
سوى الرحمن
أو كان غير الله جل جلاله **** معه قديماً كان
ربا ثان

إذ كان عن رب العلي مستغنياً **** فيكون حينئذ
لنا ريان

والرب باستقلاله متوحد **** أفممكن أن
يستقل اثنان

لو كان ذاك تنافياً وتساقطاً **** فإذا هما
عدمان ممتنعان

والقهر والتوحيد يشهد منهما **** كل لصاحبه
هما عدلان

ولذلك اقتربنا جميعاً في صفات **** الله فانظر
ذاك في القرآن

فالواحد القهار حقاً ليس في **** الإمكان أن
تحظى به ذاتان

الشرح

بعد هذا الاستطراد الطويل بذكر مذاهب الفلاسفة
والدهرية في قدم العالم وموقف ابن سينا ونصيره

نصير الدين الطوسي من الإسلام وأهله رجع إلى ما كان فيه من بيان أن الله هو وحده القديم، وأن ما سواه حادث ، فقال إن أمارات الحدوث وهو الوجود بعد العدم بادية على كل جزء من أجزاء هذا العالم المخلوق المصنوع – فإن هذه التغيرات الدائبة التي تجري في هذا العالم علويه وسفليه من ولادة وموت وزرع وحصاد ، وهبوب رياح ونزول أمطار ، وشروق وغروب وحر وبرد ، وزلازل وصواعق الخ تشهد بحدوثه إذ لو كان قديماً لما قبل هذه التغيرات ، كما أن أدلة التوحيد المثبتة لانفراده سبحانه بالربوبية والقهر شاهدة كذلك بحدوث كل ما سواه ، إذ لو كان معه قديم غيره لكان مستغنياً في وجوده وبقائه عنه فيكون ربا معه ، ومن خصائص الرب أن يستقل بالخلق والإيجاد ، فلو كان هنا ربان لحاول كل منهما

أن يستقل بالفعل ولا يتم له ذلك ما دام له شريك
مساو له في القدرة ومكافئ في الربوبية
فيتمانعان ويتعارضان ، فإذا هما عدمان ممتنعان قال
تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله
إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾
وحيث أن يفرد أحدهما بالقهر والعلو على
الآخر ويكون الآخر عاجزاً مغلوباً ولهذا كان كل من
القهر والتوحيد عدلاً للآخر ودالاً على صاحبه فقل
واحد قهار وكل قهار واحد وهذا هو سر مجيئهما
مقترنين في كتاب الله تعالى كما قال سبحانه في
سورة الرعد ﴿ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد
القهار ﴾ وكما قال في سورة الزمر ﴿ لو أراد الله أن
يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو

الله الواحد القهار ۞ فصفة القهر والعلو لا يمكن أن
يتصف بها اثنان .

فصل في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية
الرب

تعالى وكلامه والانفصال عنه

فلئن زعمتم أن ذاك تسلسل **** قلنا صدقتم
وهو ذو إمكان

كتسلسل التأثير في مستقبل **** هل بين ذلك
قط من فرقان

والله ما افترقا لذي عقل ولا **** نقل ولا نظر
ولا برهان

في سلب إمكان ولا في ضده **** هذى العقول
ونحن ذو أذهان

فليأت بالفرقان من هو فارق **** فرقا يبين
لصالح الأذهان
وكذاك سوى الجهم بينهما **** كذا العلاف في
الإنكار والبطلان
ولأجل ذا حكما بحكم باطل **** قطعاً على
الجنات والنيران
فالجهم أفنى الذات والعلاف **** للحركات أفنى
قاله الثوران

الشرح

هذا بيان لشبهة قد ترد من جانب المانعين لدوام
فاعلية الرب وكلامه بأن ذلك يستلزم التسلسل في
جانب الماضي بلا بداية ، فإنه ما دام نوع الفعل
والكلام قديماً يجب أن يكون كل حادث منهما
مسبوقاً بحادث لا ينتهي ذلك إلى حادث يعتبر أول
الحوادث .

والجواب عن الشبهة المذكورة أننا نلتزم لزوم التسلسل ، ولكن نمنع استحالته فإن هذا تسلسل في الحوادث والآثار وهو ممكن في جانب الماضي كما هو ممكن في جانب المستقبل بلا فارق أصلاً ، فإذا كان الخصوم يسلمون بإمكان تسلسل التأثير في المستقبل بمعنى أنه ما من حادث إلا وبعده حادث لا ينتهي ذلك إلى حادث يعتبر آخر الحوادث فيجب عليهم أن يسلموا كذلك بإمكانه أيضاً في جانب الماضي إذ لا يدل على الفرق بينهما شيء من عقل ولا نقل ، ولا يثبت ذلك الفرق بنظر ولا برهان وإلا فمن ادعى ذلك الفرق فليبينه لنا بياناً يرتضيه العقل . وقد سوى بينهما الجهم بن صفوان وأبو الهذيل العلاف لكن لا في الثبوت والإمكان بل في الإنكار والبطلان ؛ فحكموا بامتناع كل منهما ، وبنوا على هذا حكمهم الجائز بفناء الجنة والنار وأهلها ، فالجهم حكم بفناء الذات ، وأما أبو الهذيل فقال

بانقطاع الحركات ، وقد سبق الكلام على ذلك فلا
نطيل فيه .

و أبو علي وابنه و الأشعري ***** و بعده ابن
الطيب الرباني
و جميع أرباب الكلام الباطل ***** المذموم
عند أئمة الإيمان
فرقوا و قالوا ذاك فيما لم يزل ***** حق و في
أزل بلا إمكان
قالوا لأجل تناقض الأزلي و ***** الأحداث ما
هذان يجتمعان
لكن دوام الفعل في مستقبل ***** ما فيه
محذور من النكران

الشرح

انقسم الناس في تسلسل الحوادث والآثار إلى ثلاث طوائف فأهل السنة والجماعة ذهبوا إلى إمكانه في جانب الماضي والمستقبل جميعاً بلا فارق ، وذهب الجهم وأبو الهذيل إلى القول بامتناعه في جانب الماضي والمستقبل جميعاً كما تقدم .

وأما أبو علي الجبائي المعتزلي شيخ الجبائية وولده أبو الحسن الأشعري وتلميذه أبو بكر الباقلاني وجميع أهل الكلام الباطل المذموم ففرقوا بينهما فذهبوا إلى جوازه في جانب المستقبل وبامتناعه في جانب الأزل وكانت شبهتهم في ذلك أن الدليل القطعي قد قام على حدوث العالم بجميع أجزائه والقول بتسلسل الحوادث في جانب الأزل بلا بداية معناه القول بقدم العالم ، والقدم والحدوث نقيضان لا يجتمعان لهذا منعوا دوام الفعل في الماضي لما يلزمه من قدم المفعول ، وأما دوام الفعل في

المستقبل وتسلسله إلى غير نهاية ، فهذا لا محذور فيه ولا يقتضي الدليل إنكاره ، فالعقل يجيز أن يكون بعد كل حادث حدث دون انقطاع في جانب الأبد .
ومن شبههم أيضاً أنه إذا كان كل فرد من أفراد الفعل حادثاً ، فكيف يكون نوعه قديماً مع أن النوع ليس إلا مجموعة الأفراد ، فإذا كان كل فرد حادثاً مسبقاً بالعدم ، كان الكل كذلك ، إذ لا تصح أن توصف الجملة بحكم غير حكم الأفراد ، فإذا قلت مثلاً كل زنجي أسود ، كان الكل أسود بالضرورة ، راجع كتابنا ابن تيمية السلفي في مبحث قيام الحوادث بذاته تعالى .

فانظر إلى التلبيس في ذا الفرق ***** ترويحاً على

العوران والعميان

ما قال ذو عقل بأن الفرد ذو ***** أزل لذي ذهن

ولا أعيان

بل كل فرد فهو مسبوق **** بفرد قبله أبداً بلا
حسبان

ونظير هذا كل فرد فهو **** ملحوق بفرد بعده
حکمان

النوع والآحاد مسبوق **** وملحوق وكل فهو
منها فان

والنوع لا يفني أخيراً فهو **** لا يفني كذلك
أولاً ببيان

وتعاقب الآتات أمر ثابت **** في الذهن وهو
كذاك في الأعيان

الشرح

هذا رد لتلك الشبهة التي بنى عليها الأشعري
وموافقوه الفرق بين الدوام في جانب الأزل وبين
الدوام في جانب المستقبل ، وملخص الدفع أن هذه
التفرقة مغالطة وتلبيس لا يروح إلا على السذج
البسطاء من الجهلة وأنصاف العلماء ، إذ لم يقل أحد

من العقلاء الذين ذهبوا إلى دوام فاعلية الرب تعالى وتسلسل أفعاله ماضياً ومستقبلاً أن شيئاً من أعيان المخلوقات وأفرادها قديم ، لا ذهنًا ولا خارجاً ، بل قالوا أن كل فرد منها فهو مسبوق بفرد قلبه إلى غير بداية يمكن أن يحضرها العد والحساب ، مع قولهم بأن كل فرد منها حادث . ونظير هذا قولهم أن كل فرد فهو ملحوق بفرد آخر يجيء بعده بلا نهاية ، كذلك فالآحاد كلها لها ابتداء وانتهاء ، سواء في ذلك السابق منها واللاحق ، وأما النوع فهو مستمر أزلاً وأبداً بلا ابتداء ولا انتهاء . وقس ذلك على آئات الزمان ، وهي أجزاءه ، فإنها تتعاقب في الوجود شيئاً بعد شيء لا إلى نهاية مع امتدادها كذلك في جانب الأزل بلا بداية ، فليست تبتدىء من آن هو أول الآئات . ولا تنتهي إلى آن هو آخرها ، مع أن كل آن منها له بداية وانتهاء ، لأنه واقع بين آئين ، فكل آن منها يبتدىء من نهاية الآن الذي قبله بابتداء الذي بعده ومع ذلك فجملة الآئات لا أول لها ولا آخر لا في

الذهن ولا في الخارج . فكل فرد من أفراد
المخلوقات حادث موجود بعد أن لم يكن .
وأما النوع الذي هو من لوازم الكمال لأنه وصفه
تعالى فلا مبتدأ له ولا منتهى ، بل لم يزل الله فعلاً
لما يريد ، لأنه لا يمكن أن يكون في وقت من
الأوقات فاقداً لشيء من الكمال .

فإذا أيتم ذا وقلتم أول ***** الآتات مفتتح بلا
نكران
ما كان ذاك الآن مسبوقاً يرى ***** إلا بسلب
وجوده الحقاني
فيقال ما تعنون بالآتات هل ***** تعنون مدة
هذه الأزمان
من حين إحداث السموات العلي ***** والأرض
والأفلاك والقمران

ونظنكم تعنون ذاك ولم يكن **** من قبلها
شيء من الأكوان
هل جاءكم في ذاك من أثر ومن **** نص ومن
نظر ومن برهان
هذا الكتاب وهذه الآثار و **** المعقول في
الفطرات والأذهان
إنا نحاكمكم إلى ما شئتمو **** منها فكل
الحق في تبيان

الشرح

لما مثل المؤلف لتعاقب الحوادث وتسلسلها فيما لم
يزل ولا يزال بلا بداية ولا نهاية بتعاقب آتات الزمان ،
كذلك قال للخصوم المانعين : فإذا أبيتم هذا القياس
ومنعتم التسلسل في المقيس عليه وهو الآتات ،
وقلتم إن أول الآتات مفتتح وله بداية ، ولم يكن هذا
الآن الأول مسبوqاً بآن قبله . وإنما كان مسبوqاً

بعدم وجود ، فيقال لكم : ماذا تعنون بالآنات التي أنكرتم الحكم عليها بالتسلسل هل تعنون بها مدة الأزمنة الكائنة منذ خلق الله السموات والأرض وما فيهما من الأشياء ، ولا نظنكم تعنون بالزمان إلا ذلك بدليل أنكم تقيسون الزمان بحركات الأفلاك و دورانها ، فهذا يفيد أن الزمان عندكم حادث بحدوث هذه الأفلاك ، وأنه قبل خلق السموات والأرض لم يكن في زعمكم شيء من الأكوان موجوداً ونحن نسألكم : هل عندكم على ذلك دليل من نقل أو عقل ، فهذا كتاب الله عز وجل وهذه الآثار المروية عن رسوله ﷺ وأصحابه ، وهذه هي الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، وهذه هي بدائه العقول ومسلّماتها ، فأين تجدون زعمكم في شيء من هذه الأربع التي هي مرجع كل حجة ومصدر كل دليل ، إنا

نحاكمكم إلى أيها شئتم حتى يتبين الحق ويتضح ،
ويظهر أنكم لا ترجعون في قولكم هذا إلى دليل
معتبر ولا حجة بينة .

أو ليس خلق الكون في الأيام كان ***** وذاك
مأخوذ من القرآن
أو ليس ذلكم الزمان بمدة ***** لحدوث شيء
وهو عين زمان
فحقيقة الأزمان نسبة حادث ***** لسواه تلك
حقيقة الأزمان
واذكر حديث السبق للتقدير و ***** التوقيت
قبل جميع ذى الأعيان
خمسين ألفاً من سنين عدها ***** المختار
سابقة لذى الأكوان

هذا وعرش الرب فوق الماء من **** قبل
السنين بمدة وزمان

الشرح

يعني أن الأدلة من النقل والعقل دلت على فساد
زعم هؤلاء أن السموات والأرض هما أول
المخلوقات ، وأنه لم يكن قبلهما شيء يمكن أن
يقاس به الزمان ، فقد ذكر الله عز وجل في عدة
مواضع من القرآن أنه خلق السموات والأرض في
ستة أيام ، وهذه الأيام التي جعلها الله مدة وظرفاً
لذلك الخلق هي جملة معينة من الزمان ، وحقيقة
الزمان هي نسبة حادث إلى آخر ، فلا بد أن تكون
هذه الأيام مقدره بحركة أخرى غير سير الشمس
والقمر إذ كانت سابقة عليهما وهذا يدل على وجود
أزمنة ومخلوقات قبل خلق السموات والأرض ، وهذا

هو ما يشهد له الحديث الصحيح الذي يقول فيه الرسول ﷺ (قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) والحديث الآخر الذي بمعناه (أن الله لما خلق القلم قال له : أكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : أكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وكان عرشه على الماء)

فهذا صريح في وجود مخلوقات قبل السموات والأرض حيث أخبر أن التقدير سابق على وجود هذه الأعيان بخمسين ألف سنة ، ووجود العرش كان سابقاً على هذا التقدير بدليل قوله ﷺ وكان عرشه على الماء ﷺ أي عند كتابة القلم للمقادير ولا يرى إلا

الله كم من السنين كان العرش على الماء قبل أن
يجري القلم بما جرى به من قدر الله عز وجل .

والناس مختلفون في القلم الذي **** كتب
القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده **** قولان عند
أبي العلاء الهمداني

والحق أن العرش قبل لأنه **** قبل الكتابة
كان ذا أركان

وكتابة القلم الشريف تعقبت **** إيجاده من
غير فصل زمان

لما براه الله قال : اكتب كذا **** فغدا بأمر
الله ذا جريان

فجرى بما هو كائن أبداً إلى **** يوم المعاد
بقدره الرحمن .

الشرح

اختلف العلماء هل القلم كان قبل العرش أو بعده ،
وأيهما كان أول المخلوقات؟ قولان ذكرهما الحافظ
أبو العلاء الهمداني ، أصحابهما أن العرش كان قبل
القلم ، لما في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو
قال : قال رسول الله ﷺ (كتب الله مقادير الخلائق
قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة
وكان عرشه على الماء)

فهذا صريح أن التقدير إنما وقع بعد خلق العرش ،
والتقدير وقع عند أول خلق القلم بلا مهلة لما رواه
أبو داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول
الله ﷺ يقول (إن أول ما خلق الله القلم فقال له
أكتب ، قال يا رب وماذا أكتب قال أكتب مقادير كل
شيء حتى تقوم الساعة) يعني أنه عند أول خلقه

للقلم قال له أكتب ، بدليل الرواية الأخرى (أول ما خلق الله القلم قال له أكتب) بنصب أول على الظرفية ، ونصب القلم على المفعولية وأما على رواية رفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، - يعني عالم الأقلام - ليتفق الحديثان ، إذ حديث عبدالله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم وفي لفظ (لما خلق الله القلم قال له أكتب) فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة بقدرة الله عز وجل .

أفكان رب العرش جل جلاله ***** من قبل ذا عجز وذا نقصان

أم لم يزل ذا قدرة والفعل **** مقدور له أبدا
وذو إمكان
فلئن سألت وقلت ما هذا الذي **** أداهم
لخلاف ذا التبيان
ولأي شيء لم يقولوا إنه **** سبحانه هو دائم
الإحسان
فاعلم بأن القوم لما أسسوا **** أصل الكلام
عموا عن القرآن
وعن الحديث ومقتضى المعقول بل **** عن
فطرة الرحمن والبرهان
وبنوا قواعدهم عليه فقادهم **** قسراً إلى
التعطيل والبطلان

الشرح

أفبعد هذا البيان الذي دل على وجود مخلوقات قبل
هذا العالم ووجود زمان قبل هذا الزمان يصح أن

يقال أن رب العرش قبل وجود هذا العالم كان عاجزاً عن الفعل والإيجاد ، فيما لم يزل ، أم الحق هو عكس ذلك تماماً ، وهو أنه سبحانه لم يزل قادراً على إيجاد الفعل والفعل لم يزل مقدوراً له ممكناً .

فلئن سأل سائل عما حدا بهؤلاء الخصوم إلى المنازعة في تلك القضية التي تتألق وضوحاً وتبيناً ، ولماذا لم يقولوا بما قال به السلف من أنه سبحانه دائم الإحسان وقديمه ، فإننا نقول له : أن هؤلاء المخدولين اغتروا بعقولهم الفاسدة وبما أصلته لهم من أصول باطلة ، فعموا بسبب ذلك عن كل ما يصلح أن يكون حجة ودليلاً عموا عن القرآن والحديث ، وعموا عن الفطرة الإنسانية وعمما يقتضيه العقل السليم والنظر الصحيح ، لقد أسسوا لهم أصلاً في الكلام وبنوا عليه جميع قواعدهم ، فقادهم هذا الأصل الفاسد رغماً عنهم إلى التعطيل والإنكار وهذا الأصل هو :

نفي القيام لكل أمر حادث **** بالرب خوف

تسلسل الأعيان

فيسد ذاك عليهم في زعمهم **** إثبات

صانع هذه الأكوان

إذ أثبتوا بكون ذي الأجساد حادثة **** فلا تنفك

عن حدثان

فإذا تسلسلت الحوادث لم يكن **** لحدوثها إذ

ذاك من برهان

فلأجل ذا قالوا التسلسل باطل **** والجسم لا

يخلو عن الحدثان

فيصح حينئذ حدوث الجسم من **** هذا الدليل

بواضح البرهان

هذي نهايات لإقدام الورى **** في ذا المقام

الضيق الأعطان

فمن الذي يأتي بفتح بين **** ينجي الورى
من غمرة الحيران

فالله يجزيه الذي هو أهله **** من جنة
المأوى مع الرضوان

الشرح

هذا هو الأصل الذي أسسوه وبنوا عليه مذاهبهم في
تعطيل الرب سبحانه عن صفاته الإختيارية التي
تحدث في ذاته بمشيئته وهو الحكم بامتناع قيام
الحوادث بذاته إذ لو قامت به الحوادث من الأفعال
لوجب القول بتسلسلها وتعاقبها في الوجود شيئاً
قبل شيء لا إلى أول ، وهذا يؤدي بدوره إلى القول
بتسلسل الأعيان التي هي المفعولات وبذلك تكون
هذه المفعولات قديمة فينسد حينئذ طريق إثبات
الصانع إذ كان الطريق إلى إثباته هو لزوم الحدوث
لهذه المخلوقات وعدم انفكاكها عنه ، فإذا تسلسلت
بطل دليل حدوثها فلأجل هذا قالوا ببطلان التسلسل
ولزم الحدوث للأجسام .

وهذه الآراء التي تقدم ذكرها هي غاية ما وصلت إليه
عقول الورى في هذا المقام الذي هو مزلة الأقدام
ومضلة الأفهام فمن ذا يستطيع أن يأتي فيه بحكم
بين وقول فصل ينجي به الناس من هذه الحيرة
الغامرة ويكون له عند الله ما هو له أهل من جنة
ورضوان .

فاسمع إذأ وافهم فذاك معطل ***** ومشبه
وهذاك ذو الغفران
هذا الليل هو الذي أرداهم ***** بل هد كل
قواعد القرآن
وهو الدليل الباطل المردود ***** عند أئمة
التحقيق والعرفان
ما زال أمر الناس معتدلاً إلى ***** أن دار في
الأوراق والأذهان

وتمكنت أجزاءه بقلوبهم **** فأتت لوازمه
إلى الإيمان
رفعت قواعده و تحت أساسه **** فهوى البناء
وخر للأركان
وجنوا على الإسلام كل جنابة **** إذ سلطوا
الأعداء بالعدوان

الشرح

بعد أن أورد المؤلف الأصل الذي بني عليه أهل
الكلام قواعدهم الفاسدة في منع قيام الحوادث
بذاته تعالى ، وزعمهم أن ما لا يخلو عن الحوادث
فهو حادث واتخاذهم من هذه القضية الكاذبة التي
يزعمون أن عقولهم قد اجتمعت على صحتها أساساً
لنفي صفات الفعل والصفات الاختيارية التي تحدث
في ذاته تعالى بمشيئته وقدرته أراد بعد ذلك أن يبين
فساد هذا الدليل الي تشبثوا به فذكر أن هذا الدليل
هو الذي أوقعهم في الهلكة وأضلهم عن سواء

السبيل كما أنه قد هدم كل ما جاء به القرآن الحكيم من قواعد الإيمان فقد وصف الله نفسه في كتبه بأنه كلم موسى عند مجيئه للميقات وناداه من جانب الطور الأيمن وأنه استوى على عرشه بعد خلق السموات والأرض ، وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، وأنه سيأتي ويجيء يوم القيامة وأنه يحب المؤمنين ويرضى عنهم ويبغض الكافرين ويبغض عليهم ، وأنه يفرح بتوبة عبده التائب وأنه يسمع أصوات عباده حين تحدث ويرى حركاتهم وأعمالهم إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة والتي تدل أقوى دلالة على حدوث هذه الأفعال في ذاته تعالى بمشيئته وقدرته ، فكيف إذاً يصح قول هؤلاء الجاهلين أن ما لم يخلو من الحوادث فهو حادث دون أن يفرقوا بين جنس الحوادث وأعيانها ، فالممنوع هو قيام أشخاص الحوادث بذاته بمعنى أن يكون لها ابتداء في ذاته ، أما قيام أجناس الحوادث وحدث أحادها في ذاته شيئاً بعد شيء وفي وقت دون آخر

بمعنى أنه لم يزل فاعلاً لها إذا شاء فإنه لا يدل على امتناعه دليل بل نصوص الكتاب والسنة تثبته ولا تنفيه .

فقد تبين بذلك بطلان دليل هؤلاء وفساده ومصادمته للنصوص ولهذا اشتغل برده وإبطاله كثير من أئمة التحقيق والعرفان . ولقد كان أمر الناس معتدلاً وبعيداً عن الزيغ والانحراف قبل أن يلقي الشيطان بهذا الدليل إلى أوليائه من الإنس ، ويدفعهم إلى أن يشيعوه بين الناس ويشغلوا به كتابة وتفكيراً حتى تمكنت قضاياهم من قلوبهم فالتزموا من أجله اللوازم الفاسدة التي أتت على الإيمان من القواعد حتى هوى بناؤه وتداعت أركانه ، وجنوا على الإسلام أكبر جناية ومكنوا منه أعداءه وأعطوهم السلاح الذي يستطيعون محاربتة به ، فقد جاء الفلاسفة واستغلوا هذا الدليل الذي هو عمدة المتكلمين في القول بالإيجاب ونفي الاختيار عن الله عز وجل والقول بقدوم العالم إلخ .

حملوا بأسلحة المحال فخانهم ***** ذاك السلاح
فما اشتفوا بطعان
و أتى العدو إلى سلاحهم ***** فقاتلهم به في
غيبة الفرسان
يا محنة الإسلام والقرآن من ***** جهل الصديق
وبغي ذي طغيان
والله لولا الله ناصر دينه ***** و كتابه بالحق
والبرهان
لتخطفت أعداؤنا أرواحنا ***** و لقطعت منا
عرى الإيمان

الشرح

يعني أن هؤلاء الجهلة من المتكلمين الذين لا
يحسنون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه وأعدائه
حملوا على هؤلاء الخصوم بأسلحة مفلولة ، والمراد

بها الأدلة الباطلة المحالة فخانهم سلاحهم ولم يسعفهم ولا شفي منهم الصدور عند الطعان ، ثم جاء العدو الماكر فاستلب منهم هذا السلاح وقتلهم به فأصماهم حيث قال لهم أنتم تمنعون قيام الحوادث بذاته تعالى ، فلماذا قلتم بحدوث العالم مع أن كل ما يحتاج إليه في الفعل موجود في الأزل من علم شامل وقدرة تامة وإرادة نافذة . فلماذا إذاً يتأخر وجود المراد مع أنه لم يحدث في ذات الرب سبحانه شيء لا تجدد قدرة ولا إرادة ولا وجود آلة يستعين بها على الإيجاد الخ .

وهكذا قاتلتم العدو بنفس السلاح ، وكان ذلك في غيبة فرسان الإسلام الحقيقيين ذوي الأسلحة الماضية وهكذا كانت محنة الإسلام والقرآن في الصديق الجاهل كمحنته في العدو الظالم ، فتعاون الفريقان على هدمه وإفساده وإن كان الفريق الأول لم يقصد إلى ذلك ، ولولا أن الله ناصر دينه وكتابه

بالحجة والبرهان لمزقنا الأعداء شر ممزق ولسلبونا
أرواحنا من جسومنا ولقطعوا منا عرى الإيمان .

أ يكون حقاً ذا الدليل وما اهتدى ***** خير القرون
له محال ذان

وفقتمو للحق إذ حرموه في ***** أصل اليقين
ومقعد العرفان

وهديتمونا للذي لم يهتدوا ***** أبداً به واشدة
الحرمان

ودخلتم للحق من باب وما ***** دخلوه واعجباً
لذا الخذلان

وسلكنم طرق الهدى والعلم ***** دون القوم
واعجباً لذا البهتان

وعرفتم الرحمن بالأجسام ***** والأعراض
والحركات والألوان

وهم فما عرفوه منها بل من **** الآيات وهي
فغير ذى برهان
الله أكبر انتم أو هم على **** حق وفي غي
وفي خسران

الشرح

ينكر المؤلف على هؤلاء المتكلمين اعتمادهم في إثبات وجود الله عز وجل الذي هو أعظم المطالب في الدين على هذا الدليل المتقدم المبني على حدوث الجواهر والأعراض ، حتى ذهب بعضهم جهلاً وغلوا إلى أن من لم يؤمن بالله عن طريقه لم يصح إيمانه ، فهو يقول لهم لو كان دليلكم هذا حقاً . ويتوقف الإيمان بالله عز وجل على معرفته ، كيف لم يهتد إليه خير القرون وأفضلها ، وهم أكمل هذه الأمة علماً وإيماناً ، هذا محال ، وكيف يعقل أن توفقوا أنتم يا أذئاب الفلاسفة وإخوان الزنادقة للحق في أصل اليقين وأساس الإيمان في حين يرجع

هؤلاء الأفاضل الكملة بالخيبة والحرمان ، و كيف جاز
أن تهتدوا أنتم إلى ما لم يهتدوا إليه أو تدخلوا إلى
الحق من باب لم يعرفوه أو تسلكوا إلى العلم
والهدى طريقاً لم يسلكوه ، ولكنكم لا تتورعون عن
رمي القوم بالجهل وقلة المعرفة حيث قلت أن
مذهبنا أعلى وأحكم . ومذهب السلف أسلم .
وزعمتم أنكم عرفتم ربكم بدليل العقل وهو يفيد
القطع واليقين . أما القوم فما عرفوه إلا من طريق
الآيات القرآنية وهي في زعمكم لا تفيد إلا الظن
وإقناع السامعين .

فيا عجباً لكم تخالفون طريق القوم وتزعمون أنكم
على الحق والهدى . فمن أحق بذلك ، أنتم أم هم ؟
لا شك أنهم أولى وأحق بكل حق وكل هدى . وليس
لمن خالفهم واتبع غير سبيلهم إلا الوقوع في الغي
والضلال .

دع ذا أليس الله قد أبدى لنا **** حق الأدلة و
هي في القرآن
متنوعات صرفت و تظاهرت **** في كل وجه
فهي ذو أفنان
معلومة للعقل أو مشهودة **** للحس أو في
فطرة الرحمن
لسمعتم لدليلكم في بعضها **** خيراً أو
احسستم له بيان
أ يكون أصل الدين ما تم الهدى **** إلا به وبه
قوى الإيمان
وسواه ليس بموجب من لم يحط **** علماً به
لم ينج من كفران

الشرح

ولندع مخالفتكم لطريق القوم جانباً ولنسألکم هل
تعتقدون أن الله عز وجل قد بين لنا الأدلة الحقّة

على وجوده في القرآن وصرّفاً ونوعها لتتظاهر
على إثبات هذا المطلوب الأعظم من كل وجه .
وحتى لا يبقى فيه لبس ولا خفاء أصلاً ، فمنها ما هو
معلوم للعقل ، ومنها ما هو مشهود للحس ، ومنها ما
يرجع إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس
عليها فمع كل هذه الأدلة المتكاثرة التي جاء بها
القرآن هل سمعتم في بعضها خبراً عن دليلكم هذا
الذي جعلتموه عمدتكم في الاستدلال و أهملتم
لأجله كل ما جاء بالقرآن الكريم من أنواع الأدلة
بحجة أنها لا تفيد ما يفيد هذا الدليل من قطع و يقين
، فهل يعقل أن يكون دليلكم (ولم يرد له في كتاب
الله ذكر ولا وقعت إليه إشارة مع كثرة ما أورد من
أدلة) هو أصل اليقين والإيمان وسواه من الأدلة
ليس بموصل لهذا المطلوب ولا محصل للإيمان وأن
الواجب هو معرفة الله بهذا الدليل الفاسد ، وأن من
لم يحط به علماً لم ينبج من كفران ولم تحصل له
حقيقة الإيمان .

والله ثم رسوله قد بينا ***** طرق الهدى في

غاية التبيان

فلأى شيء أعرضنا عنه ولم ***** نسمعه في

أثروا قرآن

لمن أتانا بعد خير قروننا ***** بظهور أحداث

من الشيطان

وعلى لسان الجهم جاءوا حزبه ***** من كل

صاحب بدعة حيران

ولذلك اشتد النكير عليهم ***** من سائر

العلماء في البلدان

صاحوا بهم من كل قطر بل رموا ***** في إثرهم

بثواقب الشبهان

عرفوا الذي يفضي إليه قولهم ***** و دليلهم

بحقيقة العرفان

وأخو الجهالة في خفارة جهله **** والجهل قد
ينجي من الكفران

الشرح

يعني أن الله ورسوله قد بينا جميع الطرق المعرفة
بالله غاية البيان ، فإذا كان دليل هؤلاء حقاً فلماذا لم
يذكره الله ولا رسوله ، ولم نسمع عنه لا في قرآن
ولا أثر ، ولكنه دليل باطل متهافت ومقدماته . على
ما فيها من خفاء وبعد .

ليست كلها صحيحة وهو دليل مبتدع متلقي من
مبادئ الفلسفة اليونانية الوثنية فإن الكلام في
الجسم والعرض والجوهر وغيرها لم يظهر إلا بعد
ترجمة هذه الفلسفة إلى العربية في عهد المأمون
ومن بعده من خلفاء العباسيين وكان أول من أحدثه
هو الجهم وحزبه من المبتدعة الضلال ولهذا لما
أطلع أئمة الحق على حقيقة هذا الدليل وما فيه من
تناقض واضطراب أنكروا على أهله غاية الإنكار
وحذروا منه غاية التحذير لعلمهم بما يفضي إليه من

لوازم فاسدة فيها هدم لكل قواعد الإسلام ولسنا نعرف أحداً اختص هذا الدليل بالنقد المر اللاذع .
وأبان عن تناقضه وفساده بأدلة العقل والنقل بمثل ما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (العقل والنقل) و (منهاج السنة) فقد أتى فيه بما يشفي ويقنع فجزاه الله عن الإيمان وأهله خير الجزاء .

فصل

في خلود أهل الجنة ودوام صحتهم ونعيمهم

وشبابهم

واستحالة النوم والموت عليهم

هذا و خاتمة النعيم خلودهم **** أبداً بدار
الخلد و الرضوان
أو ما سمعت منادى الإيمان **** يخبر عن
مناديهم بحسن بيان
لكم حياة ما بها موت و عافية **** بلا سقم و
لا أحزان
ولكم نعيم ما به بؤس و ما **** لشبابكم هرم
مدى الأزمان
كلا ولا نوم هناك يكون ذا **** نوم و موت
بيننا أخوان
والجهم أفناها و أفنى أهلها **** تباً لذاك
الجاهل الفتان
طردا لنفى دوام فعل الرب في **** الماضي
و في مستقبل الأزمان

وأبو الهذيل يقول يفنى كل ما **** فيها من
الحركات للسكان
وتصير دار الخلد مع سكانها **** و ثمارها
كحجارة البنيان
قالوا ولولا ذاك لم يثبت لنا **** رب لأجل
تسلسل الأعيان
فالقوم إما جاحدون لربهم **** أو منكرون
حقائق الإيمان

الشرح

هذا وتمام نعيم أهل الجنة وخلودهم فيها وبقاءهم أبد
الآباد ولا يفنون ولا يخرجون ، وهذا أمر معلوم من
الدين بالضرورة ، فإن الآيات والأحاديث في هذا
الباب من الكثرة والصراحة بحيث لا تقبل جدلاً ولا
تأويلاً كقوله تعالى ﷻ خالدين فيها أبداً ﷻ لهم فيهم
نعيم مقيم ﷻ وما هم منها بمخرجين ﷻ خالدين فيها

ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء
غير مجذوذ ۞ ۞ طبتم فادخلوها خالدين ۞ ۞ أكلها دائم
وظلها ۞ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال
رسول الله ۞ [يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف
بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون
هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا
الموت ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟
فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ،
قال فيؤمر به فيذبح ، قال ثم يقال : يا أهل الجنة
خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت . ثم تلا
رسول الله ۞ ۞ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر
وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ۞ .

قال المؤلف في (حادى الأرواح " وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعينة الفريقين ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً ، وقال : الموت عرض والعرض لا يتجسم ، فضلاً عن أن يذبح وهذا لا يصح ، فإن الله ينشئ من الموت صورة كبش يذبح كما ينشئ من الأعمال صوراً معينة يثاب بها ويعاقب ، والله تعالى ينشئ من الأعراض أجساماً تكون الأعراض أعراضاً مادة لها وينشئ من الأجسام أعراضاً كما ينشئ سبحانه من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً ، فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالى ا 0 هـ .

وأهل الجنة كذلك في عافية دائمة لا يصيبهم الآفات ولا الأمراض ولا الآلام والأوصاب ، كما قال تعالى ﷻ لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب ﷻ ونعيمهم باق فلا يلحقهم بؤس ولا شقاء ، وشبابهم لا يفنى ولا

يحول ولا تنسخه شيخوخة ولا فناء وهم كذلك لا
ينامون ، فإن النوم والموت فيما بيننا أخوان .

روى ابن مردويه من حديث سفيان الثوري عن
محمد بن المنكدر عن جابر قال ، قال رسول الله ﷺ [
النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون]

وهذا الذي ذكرناه من دوام حياة أهل الجنة ونعيمهم
وسرورهم وشبابهم و انتفاء الموت والنوم والأسقام
والأحزان والتعب والنصب عنهم هو ما علم
بالاضطرار من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ولكن جهما قبحة الله قضى بفناء الجنة وأهلها
محتجاً بأن كل ما له ابتداء لابد أن يكون له انتهاء ،
وبأن تسلسل في الحوادث كما هو ممتنع في
الماضي ، فكذلك في المستقبل فلا بد أن يأتي وقت
لا يكون فيه إلا الله وحده تفتى الجنة والنار وأهلها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (وهذا قاله جهم لأصله الذي اعتقده و هو امتناع وجود ما لا يتناهي من الحوادث ، وهو عمدة أهل الكلام التي استدلوا بها على حدوث الأجسام وحدث ما لم يخل من الحوادث . وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنع في المستقبل ، فدوام الفعل عنده ممتنع على الرب تبارك وتعالى في المستقبل كما هو ممتنع عليه في الماضي . وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل ، لكن قال إن هذا يقتضي فناء الحركات لكونها متعاقبة شيئاً بعد شيء . فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة (

وقال الجهم وأبو الهذيل ومن وافقهما في امتناع دوام فاعلية الرب في الماضي والمستقبل جميعاً أنه لولا القول بحدوث العالم وامتناع التسلسل لما

كان لنا طريق إلى إثبات وجود الله عز وجل ، فإن
إثباته إنما هو طريق حدوث العالم المحوج له إلى
محدث يخرج من العدم إلى الوجود ، فوقعوا بهذا
بين أمرين أحدهما مر فهم إما جاحدون منكرون
لوجود الله تعالى ، وإما منكرون لحقائق الإيمان
الثابتة المعلوم ثبوتها بالضرورة .